فلسفة العقاد الدينية والاجتماعية

للأستاذ: علال الفاسي

أستاذ في جامعة القرويين ودار الحديث الحسنية

ألقى الاستاذ الكبير علال الفاسي كلمة في تأبين طرق عدة جوانب من حياته منها هذا الجانب الذي الاستاذ علال ما يزيد على ساعتين في جمع كبير من

ان أعظم مميزات هذا الرجل هي العصامية ، فمنذ نشأ العقاد وهو يعمل ليل نهار دارسا محصلا ، ثم باحثا محللا ، ثم داعيا مجادلا .

لم يتخرج العقاد من مدرسة او جامعة ، ولا درس على مجموعة من الاساتذة ولكنه اعتمد على نفسه ، واهتم بما حواليه ، وخالط الشخصيات النيرة واستفاد من أمثال جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول ومن تنافس أقرانه له ، ما جعله عالما علما ، وكاتبا ممتازا، وشاعرا فذا ، وهذه الطريقة التي انشأته ، هي التي وجهته نحو الدراسة الاجتماعية والتحليل النفسي وأخيرا الى علم الاديان .

ان للتحدي أثرا بينا في تكوين العقاد وفي عظمته ، فالرجل الذي لم يجد السبيل لاستكمال دروسه والحصول على الشهادات والذي ظل يسمع من بعض الاوائل الذين يحملون الالقاب الجامعية تبجحا واستكبارا اتجه لان يثبت لهؤلاء وأولئك ، ان الرجل بنفسه لا بدراسته ، وان العقاد الذي لم يحمل شهادة تذكر ، سيصبح هو الشهادة بعينها ، يوخذ قوله في اللغة واللهجة ، ورأيه في الاجتماع دليلا ، وكلماته في الحكمة مثلا .

وأعظم صفات العقاد في أسلوبه في الكتابة وحتى في الشعر هي القدرة على التحليل النفسي والاجتماعي، فسواء في مسار القصة ، او في دواوين العقاد العشرة ، أو في عبقرياته أو كتابه عن ابن الرومي ، فان المعين الذي يستنبط منه فقيدنا واحد ، انه التفاذ الى اعماق الكاتب العربي الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد وقد آثرنا تقديمه على صفحات مجلتنا وقد استغرقت كلمة الادباء والمثقفين .

الموضوع او الشخص الذي يتحدث عنه وتجلية دخائله للناس ، انه ينزل الموضوع والشخص على المشرحة ثم يأخذ في التحليل والتجلية حتى يصبح القارىء على بينة من أمر ما يقرأه ، وحتى يحسب ان في كل جزئية أو جانب موضوعا خاصا يطرقه العقاد وما يزال يقلبه على جوانبه ، ويصل الى نهايته دون أن يحس القارىء انه قارب الانتهاء .

ذلك أن وتيرة العقاد في الترسل واحدة ، بداية القول كنهايته لا يعنى ببراعة الاستهلال ولا يؤذن بالقرب من الختام وهو ما يجعل القارىء مندهشا بعد اتمام القراءة لفصل من فصول كتبه أو كتاب منها ، متسائلا هل انتهى الموضوع وكيف انتهى ، ثم يعود بعد ذلك الى مراجعة الشريط الذي مر في ذهنه ليندهش مرة أخرى مما احتوى عليه من فنون القول وضروب المعرفة ، وآيات الفكر .

بيئة العقاد

ولقد تربى العقاد في بيئة السلفية الاولى ، في المدرسة التي اغترف منها جيل رشيد رضا وشكيب أرسلان وسعد زغلول والرافعي ولكن التحدي الذي أشرت له أخفق أول الامر في نفس الفقيد أثر هذه المدرسة ولم يبرز منها الا جانب الوطنية كما علمها سعد زغلول وبثها القائد العملاق في أثناء كفاحه من أجل استقلال مصر ووحدة وادي النيل .

ن العقاد ورجال جيله فى هذه الحقبة ، عاشوا مرحلة الاضطراب والتقلقل بين الافكار والاساليب التى ينشرها المتخرجون من معاهد الانكليز ومعاهد الفرنسيين، بين أثر الثورة الفرنسية التى عاش فى جوها مصطفى كامل ومحمد عبده والتى يرجع اليها قسط مهم من أساليب القصة ومحاولات الكتابة الاجتماعية الاولى ، لان من (صنع) هذا العهد الكتاب اللبنانيين المتأثرين بالفكر الفرنسى قبل غيره ، وبين المناهج والاخلاق التى يبشر بها الدارسون بالانجليزية والمعجبون بالخلق البريطانى فى ميدان الديمقراطية ونزاهة القضاء ، والمدرسة فى مصر على كل حال ذات البرنامج الاستعمارى الذى خلقه دنلوب باشا ، وفصل به بين الدراسة الاصلية والدراسة الحديثة ، الى جانب الجو الذى خلقته الدعاية البريطانية لفصل مصر عن الخلافة العثمانية وتكوين حركة وطنية أبعد عن فكرة الجامعة الاسلامية وضدا على وطنية مصطفى كامل التى هى الوطنية التلقائية الحق . وذلك عن طريق ثلة من الاقباط الذين أثاروا الطائفية وهددوا بفصل جانب من القطر المصرى يكون وطنا قوميا للمسيحيين فمهدوا السبيل لرد فعل متنازل من جانب الاغلبية ، ليقبل العلاج الذى يرضى عنه الغرب وهو «الدين لله والوطن للجميع» .

ومن هنا بدأت نقطة البداية السيئة فى عمقها الجميلة فى مظهرها ليس عند المصريين والذين تأثروا بهم من الشعوب العربية فى خلق الوطنية الضيقة التى تفصل مصر عن العرب وعن العالم الاسلامى ، كما يفصل بعد السودان عن مصر ولبنان وفلسطين والاردن عن سوريا .

لقد كان سعد زغلول أول من حمل مشعل هذه الدعوة ، ونادى بالوطنية المصرية ، وكان العقاد من حواريى سعد ومن ابنائه الذين وفوا لعهده .

واذا كانت لهذه الوطنية منقبة العمل على تحرير مصر من الحماية البريطانية بعد كفاح مرير ، فانها تتحمل مسؤوليتين خطيرتين ، الاولى انها شككت فى أوائل عهدها فى القيم الروحية والادبية ، حتى أصبحنا نجد العقاد فى بداية أمره ، يكتب معللا عبقرية ابن الرومى بأنها جاءته من (الرومية) التى يحملها . الفكر الذى يرجع بعد عنه ، يوم تتجلى له حقيقة الفكر الاسلامى وعبقرية الادب العربى أما الثانية فهى الاتجاه نحو الرأسمالية واقتباس الديمقراطية من الطبقة العليا فى فرنسا وفى بريطانيا على الخصوص . الامر الذى جعل سعدا مثلا يرفض فى مجلس شورى القوانين الملك العائلى الذى لا يقبل التفويت خدمة للطبقة الارستوقراطية .

ديمقراطية فردية

وقد صاحبت هذه المسؤولية الثانية العقاد فى جميع كتاباته فكان يدافع عن الديمقراطية الفردية بكل ما فى الكلمة من معنى . وكان يحب أن يتحدث عن الباشوات الذين يتنازلون من عليائهم فيحسنون للناس أو يقومون بمعروف . وذلك ما يجعله يرثى بعض الباشوات بشعر نقرأ فيه روح المجاملة أكثر من ألم بفقد عزيز أو رثاء لضياع شخص ممتاز .

ولقد شاهدت العقاد فى بيته بعد اسقاط الالقاب فى مصر وزواره من طلبة الجامعة يخاطبونه بالبيك فيجيب وهو مسرور لا ينكر عليهم من ذلك شيئا .

نجد اثر هذا الجيل فى أساليب العقاد فى عهده الاول ، فهو يقاوم الساسه الذين يناوشون سعدا وصحبه ، وهو يعاكس الرافعى ولكنه ينافس كذلك طه حسين وينقد شوقى ليبرز وجوده كباحث وكشاعر، ويموت سعد ويبقى فى حمى النحاس ، ولكنه يغضب مع حركة الباشوية الجديدة ، مع أحمد ماهر وصحبه ، الحركة التى انشقت عن الوفد تؤيد الملاكين الزراعيين الذين رأت بريطانيا فى وجودهم ضمانا لما غرسته من نفوذ ومن آمال حسب تصريح اللورد كرومر بذلك، وحينئذ يصب جام غضبه على النحاس (الرجل الذى ليس فى بيته كتاب) ويعلن انه سيحطم الوفد بقلمه .

ولكن العقاد مع ذلك يناوئ الاستعمار ويواكب الذين يعملون للديمقراطية . ويدخل السجن من أجل كلمة رأت الحكومة فيها مساسا بكرامة القصر .. فيكتب عصامينا كتابه الخالد : الحكم المطلق فى القرن العشرين ، وينتهز الفرصة فى سجنه ليكتب مذكرته ، والحق ان العقاد يظهر نفسية غير الديمقراطية حين يشتكى من الحارس الذى يأبى ان يطفىء ضوء زنزانته فى غير الوقت المحدد .

وليؤكد وفاءه للوفد كما تركه سعد ، يؤلف كتابه العظيم عن سعد زغلول ، وهو من أحب الكتب للعقاد . ولقد حلل فيه نفسية الزعيم المصرى الكبير وأخلاقه ، والجو الذى عاشت فيه الثورة الوفدية والمنجزات التى حققتها ، وهو كتاب ممتاز بروحه الوطنية ووفائه لرجلها .

ديمقراطية الاغلبية

وفى أثناء الحرب الاخيرة وقف العقاد بجانب

الحلفاء وكتب وحاضر عن الديمقراطية وهل الاضطهاد الذى أصاب احمد ماهر وعودة النحاس الى الحكم ودعايات الحلفاء فصلته عن جماعة السعديين ، فأصبح منفردا فى عمله متجها نحو خدمة مثل أعلى اثره على غيره ، وكان يعلن انه سيخدمه حتى الوفاة الا وهو الديمقراطية .

ومهما يقل عن عوامل المحبة التى أظهرها العقاد لفائدة الديمقراطية وانصارها فى وقت الحرب ، فالذى اعتقده انه كان مومنا بهذه العقيدة السياسية لان المدرسة التى استمد منها وهى مدرسة الوفد كانت ديمقراطية امتازت بجهادها من أجل الدستور وحمايته من عبث الحكم الفردى والحياة والنضال فى الابقاء عليها .

وما أظن العقاد تراجع عن فكرته فى الديمقراطية وحبه لها ، وان عدل رأيه فى بعض جزئياتها ، فقد كتب يؤيد الفكرة القائلة بان رأى الاغلبية لا يعتد به دائما ، لان الكثرة فى جانب الشر فى أغلب أوقاتها ، متاولا على ذلك آيات القرآن المماثلة لقوله تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمومنين) (وما وجدنا لاكثرهم من عهد ، وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) .

وقد كان فى هذا الانفراد عن الاحزاب السياسية المتطاحنة ، أثر عظيم فى اعطاء شخصية العقاد استقلالها ، وعزوفها عن تبعية الرؤساء وخدمتهم ، وقد استقل العقاد فعلا منذ الحرب الاخيرة بنفسه وبآرائه ، وأصبح يتجه نحو الشعب نفسه . يكتب له ويوضح له عقائده ، ويستنير بايمانه ، ومن هنا وجد عصامينا نفسه خلص اليها واستخرج من أعماقها ذلك الكنز الذى كانت السلفية قد أودعته فيه ، وغطت عليه السياسة ومواجهة التحدى من الاقران فى الادب وفى الاسلوب .

طريق جديد

ومن هنا يبتدى العقاد حياته الجديدة العامرة ، ومن هنا ينبثق النور الذى يضئ للمجتمع العربى سبيله فى كتب العقاد .

لقد دخل فقيدنا ميدان الفلسفة ، بكل ما فى الكلمة من معنى ، ولكنها فلسفة الروح ، وما تضفيه على المجتمع الذى يحياه ، من معنويات ومثل وآثار لها..

بدأه العقاد الذى استحق فى هذا العهد فقط لقب الكاتب الاجتماعى الذى كان يضفيه على نفسه منذ نشأته ، بكتابه عن : « الله » وهو كما نرى موضوع ثرى بكل ما فى الالوهة من غنى ، كتبه للشباب الذى يحسب ان فى العزوف عن الايمان بالله تقدمية وأمنا ، أو ان فى كتابات فلاسفة الغرب مايحول دون الفكر ودون تعقل العقيدة التى هى فى قرارة القلب .

وأهم ما فى الكتاب توضيح أثر الايمان فى حرية الفرد وفى دفعه للعمل والكفاح من أجل الحياة ، أى الجانب الاجتماعى من الدين . ثم يتدفق العقاد فى عبقرياته ، موضحا جوانب العظمة فى سيرة النبى وجوانب العبقرية الحق فى جانب الخلفاء وكبار الصحابة ، من أبى بكر الى بلال ، واستعمال اسم العبقرية فى حق الرسول ، انما هو أثر من آثار الاسلوب العقادى الاول ، والا فالرسول أكبر من عبقرى لانه رسول يوحى اليه ، ومع ذلك فان هذه الكتب أثرت أثرا عظيما فى نفوس الامة المسلمة التى رأت فى صدورها فتحا مبينا للناس . ونحن لا نأخذ على العقاد فى هذه السلسلة الا نقطتين :

أما الاولى وهى أقبحهما ، فهى تملقه أحيانا لجمهور القراء فى العراق وهم شيعة كما نعلم ، والعراقيون أكثر الناس قراءة واقتناء للكتب . وهكذا نجده يمس من قدر معاوية فى كتابه عنه فينفى عنه كل حكمة وكل حلم يصفه بهما المؤرخون ، ولا نعلل ذلك الا بمسايرة الكاتب لجمهور قرائه العراقيين .

خرافة التيلباتى

وأما الثانية ، فهى انه يسف أحيانا فى اثباته للدين ، حتى يستعمل حججا تضر بالعقيدة من حيث يراد نفعها ، ومثال ذلك أنه حاول تفسير الكرامة المروية عن عمر يوم نادى وهو على كرسيه فى مسجد المدينة : يا سارية الجبل الجبل ، على انها من قبيل ما يتحدث به الروحانيون اليوم من التلباتى وهو تفسير خير منه ابقاء القصة على حقيقتها فمن صدقها على أنها كرامة لاحد الصالحين من عباده فحبذا ومن لم يصدقها فلا يضر الواقع شيئا . أما ان نجعل المسلمين يومنون بخرافة التلباتى من أجل اثبات كرامة لا يستطيع العقل انكار امكانها ، ولا مبرر لجحودها لمن يومن بانفلاق البحر لموسى والقمر لمحمد ، فالمسالة أولا وأخيرا مسالة ايمان وتصديق .

مطلع النور

ولا تعفى ملاحظاتنا هذه على الجهد العظيم الذى بذله العقاد لاستخلاص حياة الرسول وصحبه من ارتباط الاسباب بالمسببات .

ومقدمات لا ترتبط بما تلاها هذا الارتباط بل

لعلها تناقضها وتؤدى الى خلافها ، وانما ترتبط بها ارتباط الداء بدوائه والعلة بما يزيلها ، فليست النتائج هنا وليدة المقدمات بل هى العلاج الذى يزيلها والآية الالاهية التى تحول الاسباب الطبيعية الى طريق الحكمة الابدية التى تنكشف أوائلها من خواتيمها خلافا للعرف الشائع من دلالة الاوائل على الخواتم» .

وقد حلل المؤلف بشائر الرسل بالنبى ، وحلل المعجزات كما حلل النبوة من حيث هى ، نبوة الجنون، ونبوة الهداية كما سماهما ، واستخلص من التاريخ كله دين الانسانية وقيامه على المسؤولية الفردية ، ووحدة الدين بوحدة الكعبة ، وختم بالوسط الذى نشأ فيه محمد خاتم النبيين .

ومع أن هذا الكتاب جاء متوجا لما سبقه من كتابات عن الرسول فقد أصبح كالمقدمة لحياة النبى لانه يوضح الظروف الجغرافية والروحية التى بعث فيها محمد الامين .

ومع انه عرض اجتماعى وتاريخى ، فان طريقة كتابته تجعله من كتب الفلسفة التى تقرن الاحداث بأخلاق الناس وترتب هذه على تلك أو تلك على هذه .

دفاع عن الديمقراطية
وحرب ضد الشيوعية

ويصل بنا هذا الحديث الموجز الى ماثر العقاد فى عهد الثورة الناصرية ، فالذى يمكن ان نسجله باعجاب هو محافظة العقاد على استقلاله فى هذه الحقبة ، وعلى حياده ازاء السياسة المصرية أيضا ، فلن تجد فيما كتبه العقاد عن مصر أثرا يقرظ الثورة أو ينقدها ، ولكن لا نعتقد أحدا اهتم بالعمل على توجيه الثورة أكثر مما فعله العقاد ولكن فى صمت وعدم اثارة للانتباه .

والحق ان العقاد لم يكن راضيا عن منع الاحزاب ولا عن اعتقال جمهور من المفكرين . وقد سمعت منه تشكيا مرا فى بعض أحاديثى الخاصة معه . ولكنه مع ذلك حظى برعاية جميلة من طرف الثورة لم يحظ بها أمثاله من ذوى الافكار العتيدين .

لقد سالم الثورة وسالمته ، وخدمته بنشر كتبه فى حظيرة المؤتمر الاسلامى ، وخدمها بتوجيهها نحو المعرفة الحق بالاسلام . وهنا نجد مركز كتبه (لاشيوعية ولا استعمار) والديمقراطية فى الاسلام ، وحقائق الاسلام وأباطيل خصومه وانقسامه القرائية وأخيرا ما يقال عن الاسلام .

واذا كان هذا الخطاب الذى نكتبه من وحى البديهة لا يسع لتحليل كتب العقاد العظيمة فلابد من القول من أن العقاد منذ حصل على استقلاله وهو يسير نحو الالتزام حتى نفسه فى هذه المرحلة ، فقد أصبح الرجل الذى يعمل على ان يبعد الناس عن كل قدرة غير اسلامية ، فاذا كانوا يريدون الديمقراطية فهى فى الاسلام ، واذا كانوا يريدون العدالة الاجتماعية فهى فى الاسلام ، واذا رغبوا فى حلول مشاكل الحضارة او الاجتماع فهى فى الاسلام ، (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) .

والمهم أن يتحرر المسلمون من شيئين هما : الشيوعية والاستعمار ، ثم يبنون انفسهم على أسس وضعها القرآن لاول مرة لهم وللانسانية كلها .

لا شيوعية ولا استعمار

كتابه (لا شيوعية ولا استعمار) اعلان لموقف صريح يجب أن يسير فيه الشرقيون قاطبة ، فهو يقول فى مقدمته (فموقف الشرقيين بين الشيوعية وبين الاستعمار انه لا شيوعية ولا استعمار) .

والعقاد لا يريد ان يوازن بين الشيوعية وبين الاستعمار ولكنه يرى كليهما «خطرا وكليهما جديرا بالحذر والانتباه» ويقول : «فالشيوعية والاستعمار — من ثم — لا يتناقضان ولا موازنة بينهما على هذا الاعتبار ، واذا جاز ان تنعقد الموازنة فانما تكون بين جهد الكفاح للشيوعية وجهد الكفاح للاستعمار او بين الخطر المقبل والخطر المدبر» .

ثم يمضى يحل هذه الكلمات ، فيتحدث عن الشيوعية من الوجهة العلمية عن القيصرية والاستبداد والعنصرية ، والعالمية ويختم بفصل أكثر من دعوة وأكثر من دونه ، وهو فى هذا الفصل يبين الفرق القائم بين الصين وبين روسيا ، ويتنبأ بتطاحن القوميتين . وآخر كلمة للعقاد فى هذا الفصل قوله : (ولا يعتقد المؤلف ان المذهب الماركسى يصنع لعمل نافع فى علاج مشكلات العصر الا أن يكون هذا العمل تعجيلا منظما لحركة التصنيع فى البلاد التى تخلفت فيها الصناعة وغلبت عليها عيوب البداوة فى أساليب الزراعة ونظم الاقطاع)

فالشيوعية لا تصح ان تكون علاجا للشرق فى نظر الكاتب ، لانها وان أدت الى التصنيع الذى تحتاج اليه مصر فهى خطر

ثم يعود العقاد لتحليل الاستعمار وعيوبه فيتكلم عن مبدئه وأسبابه وسباق الاستعمار وأنواع المستعمرات واذابه ونهايته ونموذجه الجديد ويستنتج

مشكلته في الحكم على الاستعمار وعلى الشيوعيـــة فيقول :

«فالاستعمار حركة من حركات التاريخ الدولى بلغت نهايتها وفقدت حجة وجودها ، ومن فقدان حجة وجودها انها لا تستند الى مبدأ ولا تدعيه ، فلا يوجد اليوم من أساطين الاستعمار من يقول انه مستعمر او يقال عنه انه مستعمر فيقبل هذه التسمية .

ثم يقول : واذا كان الاستعمار قد فقد مبدأه عند أصحابه فهو من قبل ذلك لم يكن له مبدأ يستند اليه عند ضحاياه ، فلم يوجد من قبل ، ولن يوجد اليـــوم انسان ينتمى الى بلد مغلوب ينادى بمبدأ الاستعمار ويتردد فى وصف العاملين على خدمته فى بلادهم بصفة الخيانة والاجرام .

حركة من حركات التاريخ قد صارت الى نهايتها وأصبحت اليوم بغير قوام تستند اليه غير الواقع الذى يتراجع أمام واقع أعظم منه ، وأجدر بالثبات فـــى مجرى الحوادث ، فليس للمستعمر اليوم مبدأ يسوغ به مطامعه ، وليس لهذا المبدأ قيمة السند المرعى عند من ينتفع به فضلا عن المنكوبين بدعواه» .

واذن فوضع الاستعمار فى التاريخ الحديث هو وضع لا يحسد عليه ، لانه لا ايمان لاصحابه به ، ولا امكان لمساندته من أحد ، فما هو وضع الشيوعية ؟

يجيب العقاد بأنها استعمار وشىء آخر غـــير الاستعمار .

ومصير الشيوعية المستعمرة كمصير الحركة كلها فى مراحلها التاريخية ، ولكنها تختلف كثيرا فـــى أخطارها لانها لا تأتى بأخطار الاستعمار خالصة الدعوة التى تعم المستعمرين الشيوعيين وضحاياهم عـــلى السواء .

ولكن الشيوعية ذات مبدأ ، وللمبدأ مومنون به وسند يعتمد عليه فما هى أضرارها اذن ؟ يقول العقاد فى البواب ، والخطر فى الشيوعية أنها تفقد ضحاياها القدرة على المقاومة ، لانها لا تبقى لهم الكرامة القومية .

ثم يختم الكتاب كله بهذه الجملة : والكلمة الاخيرة فى هذه العجالة اننا اذا عرفنا مساوىء الشيوعيـــة والاستعمار فلا محل عندنا للشيوعية والاستعمار فانهما شران لا تبقى منهما بقية ، ويبقى معها خير لامة شرقية ، وكل ما بين الشر والشر من فارق ، فهو فى حكومـــة الشورى والمساواة الفارق فى الجهود التى تلزمنا للتيقظ والحيطة منه ، والسعى الناجح للخلاص من فعله ومن دعواه» .

وهذا هو الجانب السلبى فى فلسفـــة العـــقاد الاخيرة ، مقاومته كل ما يخرج على النظام الذى يرضاه ، وطن حر ، وديمقراطية فى الحكم ، ولا عليه بعد ذلك فى وجود الطبقات والابقاء عليها لانها مـــن ضرورات الحياة فى رأيه .

وليس غريبا ان نرى الخوف من الشيوعية يصل بالعقاد لتلك الدرجة ما دام قد نشأ فى وسط الوفد ، وفى بلد كان الزائر فيه لموسكو يمنع من العودة لوطنه ، وفى جو حملت فيه الثورة نفسها على الشيوعيـــين ، ولكن العقاد مخلص فى انتـقاده للشيوعـية باعتبـار الزاوية التى يراها منه ، زاوية المركزية التى يفرضها الحزب الشيوعى على اتباعه فيفقدهم فى نظره كـــل استقلال وطنى ، وكل استقلال فردى .

أما الجانب الايجابى فهو فى شعور العقاد بضرورة اعطاء الشرقيين فلسفة ونظاما ، ولكنه يجد ذلك فى متناولهم ، لان عندهم القرآن فيه كل ما يحتاجون من فلسفة ومن أساليب فى الحياة وفى الحكم ، وهنا نجد مركز كتابه المهم الفلسفة القرآنية ، والاسلام وأباطيل خصومه .

ولقد قال فى مقدمة الفلسفة القرآنيـة : «وفى هذا العصر الذى تتصارع فيه معانى الحياة بين الايمان والتعطيل ، وبين الروح والمادة ، وبين الامل والقنوط تلوذ الجماعة الاسلامية بعقيدتها المثلى ولا تخطىء الملاذ ، لانها عقيدة تعطيها كل ما يعطيه الدين مـــن خير ، ولا تحرمها شيئا من خيرات العلم والحضارة ، وهذا الذى نرجو ان نبينه فى هذا الكتاب» .

ثم يمضى موضحا قيمة العلم فى القرآن ، مدليا بآيات بينات ، تدعو الى الفكر والى النظـر ثـم الى استنتاج العلم من دراسة الكون ، ويقول ان فضيلة الاسلام فى انه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة ويحثهم على ولوجها والتقدم فيها .

فالقرآن سبب للعلم ودافع اليه والى الفكـــر الموصل له .

ثم يعود لبيان المعجزة وامكانها عن طريق توضيح الخلق وأسبابه ، اذ «كل ما يقرره العقل وهو واثق منه ان سبب الشىء يسبقه أو يقترن به كلما حدث على نسق

ويخلص من هذا الى دراسة الاخلاق ، ويستعرض نظريات الفلاسفة فيها فمن التعليل بنفعية الخلق ، الى مصلحة السادة ومصلحة العبيد ، ولكنه يوثر تفسيرا آخر للاخلاق ، هو الجمال ، ومصدر الجمال فى الاخلاق هو أن يشعر بالتبعة ، وتبع الاخلاق الجميلة من «عزم» الامور .

ودليل ذلك القرآن : «كل نفس بما كسبت رهينة» «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» .

فالاخلاق انما تستمد جمالها من صفات الخالق في أسمائه الحسنى ، ولذلك فان المسلم يومن بمصدر الاخلاق الجميلة ، ويومن بأنها مفروضة عليه جميعا بأمر من الله .

ويصل الى الحكم فيؤكد انه في حكومة الشورى والمساواة ومنع «السيطرة الفردية» وجماعه أن يكون لصالح المحكومين لا لصالح الحاكمين ، ولكن الحكم له دعامتان غير الشورى هما امانة الاصلاح وأمانة التعاون ، وكل ذلك من القرآن .

واذا كنا نوافق العقاد على ما يدلى به لحد الآن، فاننا نختلف معه حينما يريد ان يتناول الدرجات الموجودة في القرآن على كون الطبقات شيئا طبيعيا في المجتمع ، فما أراد القرآن بتفضيل البعض درجات على بعض أكثر من اقرار مبدأ الكرامة بالتقوى الذى قال فيه : «ان أكرمكم عند الله أتقاكم» أما التفاوت الاجتماعي بسبب المال او الجاه او الحكم فهو ما لا يمكن للاسلام ان يقره لانه أنكره بمجرد ما أعلن ان الناس سواسية ولا فضل لعربي على عجمي ولا لغنى على فقير .

ويمضى العقاد في تجلية الفلسفة القرآنية في المرأة والزواج وفي التحرير من الرق» ، والعقوبات ، ثم يعود الى العقيدة فيتحدث عن الالاه ، وعن مسألة الروح ، والقدر ، والفرائض والعبادات ، ويتكلم على التصوف ، فنجد أيضا اثر السلفية بارزا في حكمه على الذين يتصوفون أكثر من اللازم ويختم بالحياة الاخرى ، ويعود ليختم بالتذكير بالابحاث الكثيرة التى ظهرت في الغرب محللة العقائد والنظريات ويقول : ومتى استوفى العقل والضمير حظهما من سعة القرآن على هذا النهج القويم فلا حاجة به الى موافقة النظريات المستحدثة كلما ظهر منها فرض جديد .

ويقول : ان جماعة المسلمين لا يستغنون عن عقيدة ، وانهم لا يصطفون لانفسهم عقيدة ميسرة سمحة خيرا لهم مما اعتقدوه .

هذا حظ النظرية .

أما النظام فالديمقراطية الاسلامية اولى ما يختار للحكم وأفضله ، وهنا يحلق العقاد فيكتب رسالته الصغيرة في الحكم والعظمة في العلم وفي الفكر «الديمقراطية في الاسلام» ولما أعتقد ان هذا الكتيب مجموع الروايات وكتب السير واعادة الحياة اليها في شكل عصرى رائع وبليغ . فستبقى الامة الاسلامية مدينة له بهذا الادب الاسلامي الذى كان الرائد له ، ومن أحسن كتبه في هذه السلسلة رسالة : مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية ، وهو كما قال في فاتحته : «مقدمات ترتبط بما تلاها من الحوادث خير ما أخرجه العقاد للناس ، بل انه كتاب حياته .

فقد عرف الديمقراطية ما هي ؟ واستعرضها في الحضارات المختلفة وفي الديانات الكتابية ، وخلص الى أن أولاها هي ما سماه بديمقراطية الاسلام او الديمقراطية الانسانية ، وهي تقوم على أربعة أسس :

1 – المسؤولية الفردية . 2 – عموم الحقوق وتساويها بين الناس . 3 – وجوب الشورى على ولاة الامور . 4 – التضامن بين الرعية على اختلاف الطوائف والطبقات .

وقد ذهب يحلل هذه الفصول بدقة ، ويبين المناحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من ديموقراطية الانسان محمد .

وأنا لو ذهبت افصل ما كتب ، وما يوحي به في كتبه كلها من الهام قرآني عن الحكم الانساني والحضارة الحق التي يجب أن يحافظ عليها المسلمون ويبعثوها ، لما كفاني وقت القائي لهذه الكلمة ، لاستوفي ما يجب من ذلك .

أما بقية كتب العقاد ، ومنها ما نشر اخيرا ككتاب «ما يقال عن الاسلام» فيدخل في باب ما يمكن أن نسميه «بالجدلية العقائدية» للدفاع عن فهمه للقرآن ولفلسفته .

اخواني :

ان للعقاد جوانب كثيرة تحتاج الى فصول ممتعة يضطلع بها متفرغون لدراستها وتوضيحها ، ولكن أبرز شخصياته كفاحه من اجل الوجود العربي الاسلامي ، فهو امام في اللغة وبان من بناة مجامعها ، ورائد في النثر والشعر الحديثين ، ثم هو باحث ممتاز في جميع الميادين ولاسيما في تحليل الشخصيات ، وفوق ذلك فهو الكاتب الاسلامي المومن بمبادىء الاسلام وبأنه الحق الذى يجب أن ينتصر .

ولقد كافح العقاد من أجل وطنه ومن اجل اللغة العربية ، وكافح في الختام من اجل الاسلام ومناهجه، وأما ما عدا ذلك فهي نواح كان لا يهتم بها ، فهو راض بالنظام ، راغب في الطمانينة ، واثق من الشعب

ولكنه يخشى عليه أن يقع فى أحابيل الدعاة الهدامين باسم المذاهب المتدفقة فى العالم .

ولقد أسعفنى الحظ بالاجتماع معه مرارا فى منزله وفى بعض المكتبات التى كنا نلتقى فيها عفوا لشراء الكتب والاطلاع على ما جد منها ، فكان يتحدث الى حديث اليائس من الحال ، المشتكى لما آل اليه الامر فى البلاد العربية ويبتعد عن السياسة ليتحدث فى موضوعات أسمى وأكمل ، وما أزال اذكر مناقشة طويلة بيننا حول كتاب رينان ضد المسيحية وقد أخذ منى كتاب الاستاذ دولاسير فى الرد عليه ، وكنا متفقين فى موضوع المناقشة وانما كنت أعجب بتدفق العقاد وحبه للمزيد من المعرفة ومن الاطلاع . وزرته مرات فى بيته وهو مع مجموعة من طلبة كلية الآداب ولاسيما قسم الفلسفة الذين كانوا يردون اليه كل أسبوع يرتوون من معينه ، وسمعته يتحدث فى استهزاء عن اولئك الادباء الذين يتعلمون فى مدرسة غربية ما ثم يخوضون دائما فى تمجيدها أكثر من غيرها .

كان العقاد عملاقا فى جسمه ، وكان عزبا لم يتزوج قط ، ولكنه الرجل الذى يعمل فى كل وقت ، يلتهم الكتب قراءة وتأملا ، ثم يكتب للناس هذه الذخائر التى ستظل ثروة للعربية وآدابها ، ومع ذلك كان العقاد يقول : كلما ازددت معرفة ازددت شعورا بما أجهل ، ان عالم المجهول كما أراه اوسع مائة مرة مما كنت أعتقد عندما بدأت حياتى ، اننى أقرأ لانى لا بد ان أستوضح شيئا جديدا .

ان حياة العقاد مليئة بالنور ، وما أجدر الشباب أن يدرس حياته وكتبه ، وما أجدرنا جميعا أن نقتفى أثره ، رحمه الله ولقاه نضرة وسرورا والسلام عليكم.

علال الفاسى